٤١ ائتيا طوعاً أو كرهاً

عَن ابْنِ عبّاسٍ في قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت] .

قال للسماء : أَخْرِجي شَمْسَكِ وقَمرَكِ ونُجومَكِ.

وقالَ للأرضِ: شَقِّقي أَنْهارَكِ وأَخْرِجي ثِمارَك.

فَقَالتَا : أتيْنَا طَائِعِينَ (١) .

إن كل شيء فى السماوات وفى الأرض قد أسلم لله طَوْعاً أو كَرْهاً ، وهى طاعة التسخير ، فكلٌّ مَا لا تكليفَ له جاء طائعاً مُسَخَّراً ، فأجناسُ الملائكة والجماد والنبات والحيوان ، كُلٌّ منهم يؤدى مهمته بخضوع ، ولا يعترض أحدٌ منهم، ولا يملك أحدهم قدرةً على العصيان.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾

[الحج : ١٨]

فالأجناس كلها ساجدة مُطيعة لربها ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر والنبات

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/ ٢٧) وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتفسير الصحابى عندهما مسند» وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٣١٦) وقال : «أخرجه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس».

ساجد لله ، والحيوان والدوابّ ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود ؛ لكن فى مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثيرغير ساجد ؛ لذلك حَقَّ عليه العذاب.

فأصْل سجود هذه الأجناس كلها هو الخضوع والطاعة لله تعالى.

فكُلُّ الكائنات تسجد لله سبحانه ، ما عدا كل أفراد الإنسان ، فكثير منه يسجد لله ، وكثير منه يحقُّ عليه العذاب ؛ لأنه لا يطيع الحق ، ومَنْ يَعْصِ منهج الله غيْرَ مؤمن به يطرده الله من رحمته ، ومَنْ يُهِنْه الله بذلك فليس له تكريم أبداً.

وقد أجمع الكون على السجود لله ، إلا الإنسان ، فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله ، ويفرح به الكون ، ومنهم مَنْ يغضب منه الكون لأنه يعصى الله.

فالكون ـ على سبيل المثال ـ قد فرح بميلاد رسول الله ﷺ ، فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرح بمقدم الرسول الكريم ، لأن كل هذه الكائنات مُسخَّرة للإنسان ، وهى مُسبِّحة لله وطائعة بطبيعتها ، مثلما يأتى البشير ليهدى الإنسان إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً ، فهى تفرح بمقدِم هذا البشير .

ونعرف أن المكان الذى يوجد به الإنسان ، هذا المكان يفرح إنْ كان الإنسان فيه طائعاً ، وهذا المكان نفسه يحزن إنْ كان الإنسان عاصياً ، ويضجّ المكان ـ أى مكان ـ بوجود أىّ عاصٍ فيه.

ونرى ذلك واضحاً فى قَوْل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن قوم فرعون:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ {الدخان}

فالأرض التى كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر ، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التى ينعَمُ بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس وهى تغضب وتسخط وتضجّ بوجود الكافرين بنعمة الله فيها.

ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخسف والتنكيل بهؤلاء العُصَاة الكافرين المشركين ، بينما تبكى السماء والأرض إنْ فارقها مؤمن.

ولنا فى قول الإمام على ـ كَرَّم الله وجهه ـ إيضاح لهذا ، فقد قال : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان: موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض. أما موضعه فى السماء فهو مصعد عمله الطيب ، وأما موضعه فى الأرض فهو موضع مُصلاَّه (١) .

إذن : فموضع صعود عمل الإنسان فى السماء يحزن ؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمرُّ فيه ، وموضع صلاة الإنسان يفقد سجودَ إنسان خشوعاً لله.

ولكل الكائنات المخلوقة لله مشاعر، وكل شىء فى الكون يؤدى مهمته بقانون التسيير والتسخير، لا قانون التخيير، إلا الإنسان ، فهو فقط الذى يحيا بقانون التخيير فى بعض أحواله ؛ لأنه قادر على الطاعة ، وقادر على المعصية.

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبدالله قال: سأل رجل علياً ﷺ : هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصلّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على ﷺ : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ {الدخان}

وقد شاءتْ قدرة الحق سبحانه أنْ يخلق السماء على هيئة دخان فَوُجدت ، وخلقه للسماوات والأرض على وفق إرادته ، وهو هيِّن عليه بمنزلة ما يُقال للشيء: احضر راضياً أو كارهاً ، فيسمع الأمر ويطيعه.

وهذه أمور تسخيرية من الخالق الأكرم ، وليس للمخلوق من سماوات وأرض وما بينهما إلا الامتثال للأمر التسخيرى من الخالق عَزَّ وجَلَّ.

وقد يتساءل بعض الناس: هل تتكلم الأرض والسماء وغيرهما من المخلوقات فى عالم الجماد والنبات والحيوان؟

نقول : نعم ، إن لها لغةً لا نعرفها نحن ، وإنما يعرفها خالقها ، فلله سبحانه مع خَلْقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات ، وله سبحانه خطاب بألفاظ ، وخطاب بإشارات ، وخطاب بإلهام ، وخطاب بوحى.

فالله ـ عز وجل ـ يخاطب جميع خَلْقه ، ويجيبه جميع خَلْقه ، والأمثلة على هذا كثيرة فى القرآن الكريم.

فالحق سبحانه خاطب ذرية آدم ، وهى فى ظَهْره فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴿١٧٢﴾ ﴾ {الأعراف}

وهنا قد يقول قائل: أكان لهذه الذرية القدرة على النطق ، إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر ؛ لتتحد مثلاً بـ«البويضة» فى رحم الأم؟

فنردُّ عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمر صَعْب؟ إن الواحد من البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ يستطيع أنْ يتكلَّم عشر لغات ، ويتزوج من أربع سيدات ، كل سيدة ينجب منها ذرية ، ويقعد يوماً عند سيدة وذريتها ويُعلِّمها اللغة الإنجليزية مثلاً ، ويجلس مع الأخرى ويُعلِّمها اللغة الألمانية ، ويُعلِّم

الثالثة وأولادها اللغة العربية ، وهكذا ، بل يستطيع أن يتفاهم حتى بالإشارة مع مَنْ لا يعرف لغته.

وإذا كان الإنسان يستطيع أن يُعدِّد وسائل الأداء ، ألاَ يقدر أنْ يُعدِّد ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ وسائل الأداء لمخلوقاته؟

إنه قادر على أنْ يُعدِّد ويخاطب ، ألم يَقُلْ الحق ـ تبارك وتعالى ـ للجبال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ﴾ [سبأ]

كيف ـ إذن ـ لا يتسع أفق الإنسان لأنْ يدرك أن الله قادر على أنْ يخاطب أيّاً من مخلوقاته؟ إنه قادر على أنْ يخاطب كُلَّ مخلوق له بلغة لايفهمها الآخر.

والحق سبحانه قد خاطب السماء والأرض ، فقال:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي[2]﴾ [هود]

وذلك فى قصة نوح عليه السلام والطوفان ، وساعة أن يأتى فى القرآن أمر من الله تعالى مثل ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ [هود: ٤٤] فافهم أن القائل هو مَنْ تنصاع له الأرض.

فالحق سبحانه لم يَقُل : «قال الله يا أرض ابلعى ماءك» ؛ لأن هناك أَصْلاً مُتعيناً وإنْ لم يَقُله ، والحق سبحانه يريد أنْ يُنمِّى فينا غريزة وفِطْنة الإيمان ، لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أنْ يأمرَ الأرض بأنْ تبلع الماء.

ويكون أمره سبحانه للسماء ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود]

---

(١) أى :رَدِّدى الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام. (القاموس القويم ١/ ٤٢).

(٢) أقلع عن الشيء : كف عنه. وأقلعت السماء: كفَّتْ عن المطر. كقوله : ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود] كُفِّى عن المطر . (القاموس القويم ٢/ ١٣١).

أى: أنْ تُوقف المطر ، وهكذا يُنهى الحق سبحانه الطوفان الذى أغرق الدنيا بأنْ أوقفَ المصبَّ ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء .

والحق سبحانه إذا كان قد خاطب السماء والأرض بأنْ يأتيا طَوْعاً أو كَرْهاً ، فبماذا أمرهما رَبُّ العزة ؟

«قال للسماء: أخرجى شمسك ، وقمرك ، ونجومك».

«وقال للأرض: شَقَّقى أنهارك ، وأخْرجى ثمارك».

وهنا يجب أنْ نقفَ وَقْفة ، فهذا الأمر الإلهى للسماء والأرض هو فى حقيقة الأمر فى صالح الإنسان لخدمته ، فهو قد أتى إلى كون قد هُيِّىء وأُعِدَّ له ، لتستقيم حياته على هذه الأرض ، وليكونَ له وجودٌ تحت هذه السماء.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد لخَلْقه أنْ يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، فالحق سبحانه أوضح لنا فى منهجه : أنتم مُسْتخلفون فى الكون ، وأنتم أيها الخلفاء فى الأرض سادةُ هذا الكون ، سادةٌ يخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدونها فى خدمتكم.

إذن: فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان ، فكُلُّ هذه الأجناس التى سبقتْ الإنسان مُسخّرة لخدمته ؛ لأن كل هذا الوجود مُسخَّر لخدمة الإنسان.

فالنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والجماد يخدم الجميع ، والعناصر التى نأخذها نحن البشر من الجماد يستفيد منها أيضاً النبات والحيوان.

إذن : فكُلُّ جنس فى الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التى تعلوه ، وقد كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به

ارتباطاً يناسب سيادتك على الأجناس الأخرى ، كان لا بُدَّ أن تبحث عَمَّنْ أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى.

هل أنت أيها الإنسان قد سخَّرْتَ هذه الأجناس بقدرتك وقوتك؟ لا . فلستَ تملك قدرةً ذاتية تتيح لك ذلك؟ أمَا كان يجب عليك أنْ تفكر ما هى القوة التى سخَّرتْ لك مَا لا تقدر عليه ، فخدمتْكَ حين لا توجد لك قدرة ، وخدمتْكَ وأنت نائم تغطُّ فى نوم عميق؟

وأنت لست وحدك فى هذا الكون ، بل هناك أجناس أخرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه ، وله مهمته ، للحيوان مهمة ، وللنبات مهمة ، وللجماد مهمة ، فهل وجدتَ جنساً من الأجناس تمرَّد على مهمته؟ لا .

إن الحصان مثلاً ، نستخدمه كمطيّة عليها وسادة من حرير وجلد ، ولها لجام من فضة لتركبه ، وتجد هذه المطية فى يوم آخر تحمل سماد الأرض من رَوَث الحيوان وما تأبَّتْ ، لقد أدَّتْ الخدمة لك راكباً ، وأدَّت الخدمة لك ناقلاً ، وما تمرَّدَتْ عليك أبداً.

كل الأجناس ـ إذن ـ تُؤدِّى مهمتها كما ينبغى ، فاستقام الأمر فيها ، وما دام الأمر قد استقام، فبأىِّ شىء استقام ؟ إن الله هو الذى خلقها وذلَّلَها ، قال لها: « كونى فى خدمة الإنسان ، مؤمناً كان أو كافراً».

وفى هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخَّر أو تشذّ عن حركتها فى خدمة الإنسان.

لذلك يقول الحق سبحانه :﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [يس]

وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها ، وليس بقدرتنا ، يأتى الله سبحانه وتعالى إلى أرض ينزل عليها المطر بغزارة ، والعلماء يقولون: إن هذا يحدث بقوانين الكون ، فيلفتنا الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى خطأ هذا الكلام ؛ بأنْ تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة ؛ لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ، ولكن بإرادة خالق الكون.

فإذا كانت القوانين تعمل وحدها ، فَمَنْ الذى عطَّلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين ، إنْ شاءت جعلتها تعمل ، وإنْ شاءت جعلتها لا تعمل.

إذن : فكُلُّ شىء فى الكون باسم الله ، هو الذى سَخَّر وأعطى ، وهو الذى يمنح ويمنع.

أرأى أحدكم الشمس مرة قالت : لم يَعُدْ الخَلْق يعجبوننى ، ولن أشرق عليهم وسأحتجب اليوم ؟ أتمرَّدَ الهواء وقال: لا ، إن الخَلْق لم يعودوا يستحقون تنفُّس الهواء ؛ لذلك لن أُمكِّنهم من الانتفاع بى.

أرأينا المطر امتنع ؟ هل استنبتَ الإنسان أرضاً صالحة للزراعة واستعصتْ عليه ؟ لا ، فكُلُّ شىء فى الوجود يُؤدِّى مهمته تسخيراً وتذليلاً.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُطلق بعضاً من الحيوان فلا يُذلَّل ، ولا يُستأنس ، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل مثلاً بقدرتك، فإنْ كانت لك قدرة مُطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم ، أو استأنس الأسد.

وأنت أيها الإنسان ترى فى هذا الكون بعضاً من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة بغير استئناس ؛ ليدلنا الحق على أن

هذا الذى يخدمك لو لـم يُذلِّله الله لك لَمَا استطعتَ أنـت بقدرتك أنْ تُذلِّله، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات ، منحه الله تعالى لك أيها الإنسان تفضُّلاً منه ـ سبحانه ـ مع عَجْزك وضَعْفك.

ولم نجد شيئـاً نافعاً قد عصى الإنسان فى الكون ؛ لأن كـل الخَلْق مُسخَّر من الله لخدمة الإنسان كافراً كان أو مؤمناً ، وهذا هو عطاء الربوبية ؛ لأن عطاء الربوبية يشـمل الخَلْق جميعـاً ، فالخالق الأكـرم هو رَبُّ الناس كلهم ، ويتولَّى تربيتهم جميعاً ؛ ولذلك تستجيب الأجناس من غيـر الإنسان للإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً.

فإنْ أحـسن الكافـر استخـدام الأسبـاب فإنَّ الأسـباب تعطيـه ولا تعطى المؤمن الذى لا يستـخدم الأسباب ، أو لا يُحسن اسـتخدامهـا ، فهذا هو عطاء الربوبية ، والربـوبية للجمـيع ، أما عطاء الألوهية فـهو «افـعل ولا تفعل » وهو عطاء للمؤمنين فقط.

وربُّ العـزة سبـحانه خـاطب السمـاء فقـال لها: «أخـرجى شمـسك ، وقـمـرك ، ونجومك» وخـاطب الأرض فـقـال: «شَقِّـقى أنهـارك ، وأخـرجى ثمارك».

وكأن الحق ـ سبحانه ـ يُحدِّثنا عن مُـقوِّمات الحياة فى الكون الذى أُهبط عليه الإنسان ضَيْفاً عليه ، لم يصنع فيه شـيئاً ، بل جاء فوجد كل شىء مُهيَّئاً له مُعَدّاً.

والحق سبحانه يقول فى قرآنه : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [يونس]

فالحق سبحانه جاء لنا بنِعَمٍ من آياته التى خلقها لنا ، والتى جعلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ سبباً لقوام الحياة ، فالشمس هى التى تُنضج لنا كل شىء فى الوجود ، وتُعطى لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تُبخِّر المياه لينزل الماء بعد ذلك عَذْباً فراتاً ، يرتوى منه الإنسان ، وتشرب منه الأنعام ، ونروى به الزرع.

والشمس هى الأم لمجموعة من الكواكب التى تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم.

وقد عرفنا أن هناك مطالعَ متعددةً للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ، لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا فى بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ فى البناء ، فتطلع الشمس كل يوم من أحد هذه الطاقات ، فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمىً أى يومياً.

ونُسمِّى نحن تلك المنازل «البروج» كبرج الحَمَل والجدى والثور والأسد والحوت ، ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة وبرودة ومطر وغير ذلك ، ذلك أن كل برج له زمن ، ويمكن تعرُّف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة.

ويقول الحق سبحانه :﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ {النحل}

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان ، والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً مُتعلِّقون بفعل واحد وهو «سَخَّر» ، وهم نَسَق واحد ، والتسخير يعنى قهر مخلوق لمخلوق ليؤدى كُلٌّ مهمته ، وتسخير الليل

والنهار والشمس والقمر ، كُلٌّ له مهمة ، فالليل مهمته الراحة ، والنهار له مهمة أن تكدح فى الأرض لتبتغى رزقاً من الله وفضلاً.

والشمس جعلها الحق سبحانه مصدراً للطاقة والدفء ، وهى تعطيك دون أن تسأل ، ولا تستطيع هى أيضاً أن تمتنع عن عطاء قدَّره الله ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴿٣٣﴾ ﴾ {إبراهيم}

والدؤوب هو مرور الشىء فى عمل رتيب ونظام دقيق ، ولكل من الشمس والقمر فَلَك خاصٌّ ، وحركة محسوبة بدقّة فلا يصطدمان ، وقد سخَّر لنا الحق سبحانه الليل والنهار ، وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر ، وكُلٌّ من الشمس والقمر دائبان ، يمشى كل منهما فى حركته مَشْياً لا تنقطع فيه رتابة العادة ، ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدِّد ـ على سبيل المثال ـ أوائل الفصول ، ومواسم الزراعة ، ومواقيت الصلاة.

ثم إنَّ تعاقُبَ ظهور الشمس والقمر يُسبِّب تعاقب مجىء الليل والنهار، ولا يعنى ظهور الشمس وسطوعها أن القمر غير موجود ، فهو موجود ولكن ضَوْءَ الشمس المبهر يمنعك من أنْ تراه ، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً.

أما النجوم ، فقد قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ {الأنعام}

والنجوم هى الأجرام اللامعة التى نراها فى السماء لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خَلْقه ستضطرهم حركة الحياة إلى الضرب فى الأرض ، والسير ليلاً فى الأرض أو البحر مثل مَنْ

يحرسون ويشيعون الأمْن فى الدنيا ، ولا يمكن أن يناموا بالليل ، بل لا بُدَّ أنْ يسهروا لحراستنا ، كُلٌّ ذلك أراده الله بتقدير عزيز حكيم عليم .

ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدى بها هؤلاء الذين يسهرون ، أو يضربون[1] فى الأرض ، أو يمشون فى البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضَوْءٍ قليل ليهديهم ؛ ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم .

يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلانى أمام عينيك ، وسِرْ نحو الجهة الفلانية . إذن : لو طمَّتْ الظلمة لمنعت الحركة بالليل ، وهى حركة قد يُضطرُّ إليها الكائن الحى ، فجعل الحق سبحانه النجومَ هدايةً لمن تجبرهم الحياة على الحركة فى الليل.

وعلى ذلك ، فالنجوم ليست فقط للاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ؛ لأنه لو كان القصد منها أنْ نهتدىَ بها فى ظُلمات البرِّ والبحر ، لكانت كلها متساوية فى الأحجام ، لكنّا نرى نجماً كبيراً وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر فى الواقع من النجم الكبير ، لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر .

وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها فى حركة الإنسان بَرّاً وبَحْراً ، فليستْ هذه هى كل الحكمة ؛ لذلك يأتى الحق فى أمر النجوم بقول كريم آخر ، يقول سبحانه : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة]

وكل يوم يتقدم العلم يُبيِّن لنا الحق أشياء كثيرة ، فها هو ذا المُذَنَّب الذى يقولون عنه الكثير ، وها هى ذى نجوم جديدة تُكتشف تأكيداً لقول الحق:

(١) يقول تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل] والضرب فى الأرض: الذهاب فيها والتنقل فى البلاد ، ويُكْنى به عن السعى فى طلب الرزق [القاموس القويم ١/ ٣٩١].

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (١) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ [الذاريات]

أى : أنه سبحانه قد خلق عالماً كبيراً ، وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قَدْر إدراكاتك وامتداداتك فى النظر الطبيعى الذى لا تستخدم فيه آلة إبصار.

والحق سبحانه يُوضح : إننى خلقتُ لكم الأشياء مما قَدَرْتُكم بعقولكم أنْ تصلوا إلى شىء من الحكمة فيها ، ولكن لا تقولوا : هذه مُنتهى الحكمة ، بل وراءها حِكَم أعلى ، فسبحانه هو الحكيم القادر ، إنك قد تدرك جانباً يسيراً من حِكَم الله ، ولكن عليك أنْ تعلم أنَّ كمال الله غير مُتناه ، ولا يزال فى مُلْك الله ما لا نستطيع إدراك حكمته ، إلى أن يُنهى الله الأرض ومَنْ عليها.

فللنجوم تأثيرها فى الجو ، وهى علامات نهتدى بها ، فَضْلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات ، وهى فوق كل ذلك تؤدى مهمة جمالية كبيرة ، وهى أنْ تكون زينةً لكل مَنْ ينظر إليها.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)﴾ [الحجر]

وقال تعالى :﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢)﴾ [فصلت]

فالمصابيح فى السماء كالشمس والقمر والنجوم والكواكب ، هذه المصابيح تنير وتضىء ، فنور الشمس يُسمَّى «ضياء» ، والضياء نور مع

(١) بأيد: أى بقوة وقدرة . وهو ذو أيد . أى : صاحب قوة. آد العزم وآد الرجل : قوى واشتد فهو أيِّد أى قوى . [القاموس القويم ١/ ٤٥].

حرارة، والنور نور فقط ، والقمر نور ؛ ولذلك سَمَّوْه «النور الحليم» ، أما ضوء الشمس فيُسمَّى ضياء ، وتُسمَّى الشمس أيضاً سِراجاً.

والسراج ينير ، وفيه حرارة كالشمس ؛ لأن الحرارة يحتاجها الكون للحياة والأحياء الموجودة فيه ؛ والحق سبحانه وتعالى يقول :﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ {الفرقان}

أما الأنهار والثمار التى أمر رَبُّ العزة الأرض أنْ تخرجها ، فقد قال الحق سبحانه :﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴿٣﴾ ﴾ {الرعد}

والنهر يُطلقُ على ما يحمل المياه العَذْبة ، أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضت أنهار الدنيا كلها ستجد أن مجاريها تصبُّ فى البحار ، وهذا دليلٌ على أن منسوبَ النهر أعلى دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس لَطغى ماء البحر على مياه النهر ، ولَمَا استطعنا أنْ نشربَ أو نزرع.

ولذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يجعل الماء العذب هو الأعلى ؛ لأن له مهمة يؤديها قبل أنْ يصبَّ فى البحر ، أقول ذلك حتى نعلم الحكمة فى قَوْل الحق سبحانه : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ {الرحمن}

ومن العجيب أن البرزخ الذى يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر فى مياه البحر بما يحقق سهولة فى هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إنْ حفرتَ عند شاطىء البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك ، حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم «شاطىء النخيل» ونحن

نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل فى هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العذب من هذا المكان الذى يوجد على البحر ، وقد تكون له جداول عَذْبة.

فسبحانه القائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴿٢١﴾ ﴾ {الزمر}

ونحن فى الريف نجد منْ يحفر بئراً ويكون ماؤه عَذْباً ، وآخر يحفر بئراً ، ويكون ماؤه مالحاً ، وهذا دليل على أن الماء فى بطن الأرض غير مختلط ، بل لكُلٍّ مسارب تختلف باختلاف نوعية المياه.

ويُرتِّب الحق سبحانه فى نفس الآية مجىء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت ـ الجبال ـ كمصدر للغرْين وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التى تحمل الماء اللازم للرىِّ ، وهكذا يكون مجىء الثمرات أمراً طبيعياً .

والثمرة ـ كما نعلم ـ هى الغاية من أىِّ زرع ، والثمرات هى نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها ، وقد لا تأكل البعض الآخر ، فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكنَّا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ، ولكنَّا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال.

وقد قال تعالى :﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ (١) يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ {الرعد}

وهو قَوْلٌ يدل على الإعجاز ، فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً

(١) الصنو : المثل، إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد. قيل لكل واحد منهما صنو. والجمع صنوان . {القاموس القويم ١/ ٣٨٤} .

منها تناسب الطقس الذى توجد فيه ، فزراعة الذرة تحتاج مناخاً معيناً ، وكذلك زراعة الموز.

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، بل هى تربة مناسبة للجو الذى توجد به ، فهناك قطعة سَبَخة لا تنبت وأخرى خِصْبة تنبت.

بل ، وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر ، ومن قطعة إلى أخرى ، فثمرة الجوافة من شجرة معينة فى منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة فى منطقة أخرى ، والقمح فى منطقة معينة يختلف عن القمح فى منطقة أخرى ، ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسْقى بماء واحد .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك ستنقى من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيْرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقى من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروق لك ، وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة.

وأنت لا تجد فى الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً فى الطعم من نوع إلى نوع ، كذلك تجد اختلافاً فى طريقة تناولها ، فلا أحدَ منَّا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أنْ نُخرج منها النواة ، ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونُخرج ما فى قلب حبة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المشمشة من بعد ذلك.

فكُلُّ ثمرة لها نظام خاص : فهناك اختلاف ، وهذا الاختلاف يمتدُّ إلى أدقِّ التفاصيل ، لدرجة أنك حين تتناول قِطْفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبَّات العنب عن غيرها.

والحق سبحانه وزَّع الفضل فى الأطعمة والفواكه والثمار، وانظر إلى نفسك لحظة أنْ تُقدَّم لك أصناف متعددة من الفاكهة ، فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح ، فساعة طلبتْ نفسك ثمرة الجميز صارتْ فى تقدير الموازين والتبادل هى الأفضل ، وكلُّ إنسان يمكن أنْ يجد ذلك فيما يخصُّه أو يُحبه.

وقد كان إنسان مُسْرف على نفسه ، ثم انصبَّتْ عليه الهداية مرة واحدة ، ورآه كل مَنْ حوله وهو مُقبِل على الله ، فسألوه عن سبب الهداية ، فقال :

كنت أجلس فى بستان ، ثم رَاقَ لى عنقود من العنب ، فقطفتُ العنقود ، وأخذت أتأمل فيه فوجدت غشاءً رقيقاً شفافاً ـ وهو قشرة حبة العنب ، يشِفُّ عَمَّا تحته من لحم العنب الممتلىء بالعصير .

وحين وضعتُ حبة العنب فى فمى صارت ماءً رَطباً ، وأخذنى العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حرارة جو شهر بؤونة ، ثم وجدت بذرة الحبة ولها طَعْم المسْك ، فلمَّا غمرنى السرور من طَعْم وجمال العنب سمعت هاتفاً يهتف بى : « كيف تكفر بالله وهو خالق النَّعَم؟».

فهتفتُ : آنَ ياربِّ أنْ أؤمنَ بك.